

النسق الاجتماعي في الرواية النسوية العربية

'رواية لحظات لا غير' أنموذجا

THE SOCIAL FORMAT IN THE ARAB FEMINIST NOVEL IS A NOVEL OF MOMENT THAN ARE NO MORE THAN A MODEL

العزاوي حفصة *

أ.د أحمد حيدوش *

تاريخ النشر: 2019/12/25	تاريخ القبول: 2019/10/21	تاريخ الإرسال: 2019/09/17
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تأتي إبداعات المرأة العربية على أجناس عديدة أثبتت فيها قدراتها وتفوقها في كثير من المرات، خاصة في الجنس الروائي، الذي يعد من المساحات أكثر استيعابا للمواضيع التي تعالجها المرأة، وتؤكد حضورها من خلالها، بعد سنوات من انتسابها للحكي واقتصار الكتابة على الرجل فقط. كما حاز النقد الثقافي بآلياته على اهتمام كثير من الدارسين المنصب حول اكتشاف المضمهر من الأنساق في الرواية النسوية، بسبب لجوئها إلى التلميح أحيانا واعتماد التصريح أحيانا أخرى، و محاولة تغليف أفكارها بلغة جمالية وفنيات أدبية تحمل التمرد والعصيان على المواثيق الاجتماعية ما يجعل من تلك الروايات مسرحا لصراع الأنساق، وخاصة الاجتماعية منها، حيث تعد الحياة الاجتماعية للمرأة من أكثر الأزمات والتوترات التي تحملها الرواية النسوية وتحاول من خلالها معالجتها وكسر المحرمات الثقافية التي فرضتها الهيمنة الذكورية عليها.

المؤلف المرسل: العزاوي حفصة lazzaouiha24@gmail.com

* جامعة محند آكلي أولحاج / lazzaouiha24@gmail.com

* جامعة محند آكلي أولحاج البويرة / ahmedhidouche 19@gmail.com

الكلمات المفتاحية: النسق، الاجتماعي، الرواية، النسوية، العربية.

Abstract:

The creations of Arab women come in many genres which have proved their abilities and superiority in many times, especially in the novel sex, which is considered more space for the topics addressed by women, and confirms their presence through them, after years of affiliation to the story and limit writing to men only. Cultural criticism has also gained the attention of many scholars who have focused on the discovery of the stereotypical patterns of feminism, because they sometimes resort to hinting at it and sometimes adopting the statement. They also encapsulate their ideas in aesthetic language and literary techniques that bear rebellion and disobedience to social charters. The social life of women is one of the most crises and tensions in the feminist narrative, in which they attempt to deal with them and break the cultural taboo imposed by male domination

Key words: format- social-narrative-feminist- rabic.

*** **

مقدمة:

احتلت الرواية النسوية مكانة كبيرة في البحوث النقدية المعاصرة، إذ أصبحت دراسة كتابة المرأة علامة حداثية لتلك الدراسات. حيث سعت الرواية النسوية إلى استقطاب مختلف الاتجاهات التي من شأنها كشف القهر والظلم الاجتماعي الذي تعانيه المرأة في ظل سيطرة الثقافة الأبوية التي ما فتئت تحط من قيمتها، ككائن مساو للرجل في الحقوق والواجبات. حيث اغتنت الثقافة بالتوجه الذكوري الذي سيطر على القيم الاجتماعية وسعى إلى صياغة الأعراف ملائمة لتوجهاته، وبسط سيطرته التقاليد التي تعد بني اجتماعية مقدسة.

فكانت الرواية من النماذج التي خرجت بها المرأة من عالم الصمت وأرادت قلب مراكز الاهتمام، وجعلت من مسائلها بؤرة توتر تدور حولها القضايا الانسانية وليس الخاصة بالمرأة فقط. فأصبح تمرد المرأة قضية عالمية سعت من خلالها إلى المطالبة بحقوقها التي يكفلها لها الانتماء إلى المجتمع الانساني البعيد كل البعد عن الهيمنة الذكورية، والتي جعلت من المرأة بمرتبة الحيوان، وأن الرجل هو الكائن الكامل وصاحب الوصاية عليها بحكم أن النساء ناقصات عقل. ومن خلال هذا التوجه الذي سعى إلى بث

تلك المعتقدات في مختلف المجالات وتوارثتها الأجيال عن بعضها البعض، فأصبحت الموروثات الاجتماعية تشهد على دونية المرأة وحقارتها، حيث غلفت أغلب تلك الآراء بأقوال دينية حتى تصبغ برؤية مقدسة ويحرم تجاوزها.

ولكن الابداع الروائي النسوي في الوقت الحاضر منح المرأة مساحة من البوح والتمرد على الراهن من السياسات الذكورية. فكانت رواياتها علامة على نضج فكرها واتساع أفق رؤاها. فاغتنت رواياتها بالأنساق الثقافية التي تدمر البنى المجتمعية وتضرب الأسس التي يقوم عليها المجتمع، وترفض انحياز الثقافة للتوجه الذكوري. وتعد رواية 'لحظات لا غير' لفاتحة المرشيد نموذجا للكتابة النسوية المتدثر بالجميل الأدبي لفضح القبح الثقافي، فكانت مجالا خصبا لكشف الأنساق الاجتماعية التي تتصل بالثقافة ويرفضها التوجه العام للمرأة.

فكيف عبرت المرأة عن نفسها من خلال الرواية باعتبارها أكثر الأجناس الأدبية استقطابا للإبداع النسوي؟

وكيف جسدت الرواية النسوية الصراع العام القائم ضد هيمنة الثقافة الذكورية؟

ولم يعد النسق الاجتماعي من أكثر الأنساق استفحالا في الرواية النسوية العربية المعاصرة؟

وكيف يمكن كشف ذلك التوظيف الذي يفضل المضمهر - في معظم الأحيان - على المكاشفة التي توحى بثقل معاناة المرأة؟

ومن أجل كشف تلك الأنساق وبيان طريقة توظيفها وتأثيرها، اعتمدنا على آليات النقد الثقافي التي تمنح للقارئ فرصة التوغل في خبايا التراكيب والبنى الثقافية المختلفة. فاعتمدنا على عدة مفاهيم تخدم التوصيف المبدئي للورقة البحثية.

1- مفهوم النسق الثقافي:

جاء المفهوم اللغوي للفظ 'النسق' على معاني متقاربة في عدة معاجم لغوية، فقد جاء في كتاب العين، أن: "النسق من كل شيء: ما كان على نظام واحد عام في الأشياء. ونسخته نسقا ونسخته تنسيقا، وتقول: انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت¹ ونجد في لسان العرب أن "النسق من كل شيء: ما كان على نظام واحد عام في الأشياء، وقد

نسقته تنسيقاً، ويخففُ. ابن سيدة: نسق الشيء ينسقه نسقاً نظمه على السواء، وانتسق هو وانتسق، والاسم النسق، وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض، أي تنسقت²، حيث يحتل انتظام الأشياء واتساقها الدلالة العامة للفظ. أما في الجانب الاصطلاحي، فقد تعددت المحاولات والتي حاولت إعطاء توصيف إجرائي للمصطلح، باعتباره يدخل ضمن مجال النقد الثقافي.

ويحاول عبد الله الغدامي من خلال مشروعه النقدي إعطاء مفهوم النسق دلالة اصطلاحية خاصة، إذ يرى أنه يتحدد

"1/ عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامين من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمّر، ويكون المضمّر ناقضاً وناسخاً للظاهر ويكون ذلك في نص واحد، ويشترط في النص أن يكون جمالياً، ولسنا نقصد الجمالي حسب النص النقدي المؤسّساتي، وإنما الجمالي هو ما اعتبرته الرعية الثقافية جميلاً، وهنا نستبعد (الردّي) و(النخبوي) عبر شرطي الجمالي والجماهيري، كما نستبعد التناقضات النسقية التي تحدث في مواقع مختلفة وفي نصوص متباينة...، نقول -إذن- إن مواصفات الوظيفة النسقية هي:

أ- نسقان يتحدثان معا في آن واحد، في نص واحد أو في ما هو بحكم النص الواحد

ب- يكون المضمّر منهما نقيضاً ومضاداً للعلني ...

ت- لا بد أن يكون النص جميلاً ويستهلك بوصفه جميلاً، بوصف الجمالية هي أخطر الحيل الثقافية لتمرير أنساقها وإدامتها

ث- ولا بد أن يكون النص جماهيرياً ويحظى بمقروئية عريضة، وذلك لكي نرى ما للأنساق من فعل عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي ...

2/ هذا يقتضي اجرائياً أن نقرأ النصوص والأنساق التي تلك صفتها قراءة خاصة، قراءة من وجهة نظر النقد الثقافي، أي أنها حالة ثقافية، والنص هنا ليس فحسب نصاً أدبياً وجمالياً، ولكنه أيضاً حادثة ثقافية...

3/ والنسق هنا من حيث هو دلالة مضمرة، فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من المؤلف ولكنها مكتبة ومنغرس في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء

4/ والنسق هنا ذو طبيعة سردية يتحرك في حبكة متقنة، ولذا فهو خفي ومضمروقادراً على الاختفاء دائماً، ويستخدم أقنعة كثيرة وأهمها...قناع الجمالية اللغوية، وعبر البلاغة وجمالياتها تمر الأنساق آمنة مطمئنة، من تحت هذه المظلة الوارفة³. وبهذا التفصيل المحوري يكشف عمل النسق في النصوص الإبداعية وكيفيات تجليه، وكيف أنه يستغل الراهن الجمالي لتوظيف القبيح الثقافي. ويظهر أن كشف الأنساق عبر آليات النقد الثقافي وفق اجراءات نقدية معينة يكشف بها الناقد ما يخر به النص من حمولة الأنساق الثقافية على اختلافها. ويتعدد ظهور الأنساق الثقافية في النصوص الإبداعية على اختلافها، وتأتي على عدة أنواع منها الديني والسياسي والاجتماعي...وبعد هذا الأخير من الأنساق التي يتجلى على عدة محاور ومظاهر تسيطر على الرواية.

وقد اهتم النقد الثقافي بمجال الابداع الروائي لما لهذا المجال من سعة التوظيف، للظواهر والمضمرة من الأنساق، ولما يساهم فيه التوظيف اللغوي للمبدع. ودون تجريد هذا الابداع بصفة عامة من الاهتمام، فقد لاقت الرواية النسوية رواجاً كبيراً في الدراسات النقدية على مختلف الأصعدة. وحاز النقد الثقافي على جانب من هذا الاهتمام، لما يعده عن الرواية النسوية من تمرد ومحاولات الانقلاب على الوضع الراهن، بسبب الهيمنة الذكورية على الثقافة المسيرة للمجتمع. ف "الكتابة النسوية التي تتمرد على كتابة الذكور وكتابة المجتمع التي تنتج في سياق وعي الذكورة ونفسية الأبوة وسلطة الرجل و من ثم كان على المرأة أن تخلع ثوب القيم والعادات و التقاليد التي تربت عليها في تاريخها الطويل ،مما جعل كتابتها لا تعبر عن ذاتها ، وإنما عن التمثلات الاجتماعية و الثقافية المفروضة عليها ."⁴ وبهذا تكون المرأة قد أعطت لنفسها فرصة البوح وكسر الطابوهات والتعبير عن الممنوعات الاجتماعية التي تحرم على المرأة باعتبارها كائناً من الدرجة الأدنى. ولا يقتصر استعمال الكتابة النسوية على انتاجات المرأة فقط بل قد يأتي مصطلح الكتابة النسوية لـ "لتعبير عن كل فكر أو نضال إنساني يقف إلى جوار المرأة ويدعم مشروعيتها نضالها ويدعو إلى إيقاف الحيف الواقع عليها. فإن مصطلح الكتابة النسائية لا يحيل إلى

الكتابة التي تنتجها المرأة فقط بغض النظر الموضوع أو الفكر الذي تنطلق منه"⁵. فتعد المرأة محور القضية التي تعالجها الكتابات النسوية، من أجل فك السيطرة المطلقة التي تحكمها الثقافة الذكورية التي تتوارى خلف القيم والعادات والأعراف الاجتماعية.

2/النسق الاجتماعي في الرواية النسوية:

ومن خلال الاعتماد على المفاهيم الاجرائية للنقد الثقافي، ومحاولة كشف الأنساق الاجتماعية التي تسيطر على البناء العام للرواية النسوية، نجد أن النسق الثقافي "يتجاوز مفهوم البناء الاجتماعي الذي يعتبر الثقافة مجموعة من الأنظمة المحسوسة والأدوار والمكانات وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد الملموسة، كما أنه يتجاوز الأبعاد التجريدية والتعميمية لمفهوم البنيات اللاشعورية الثابتة التي تحكم تلك الأبنية الاجتماعية من منظور ليفي شتراوس. وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن مفهوم النسق الثقافي يقع في منطقة وسطى بين البناء الاجتماعي والبنية الكامنة في العقل الانساني، وذلك لجمعه بين وظيفة التفسير والاستيعاب للتجربة الانسانية من جهة، وبين وظيفة التأثير والتحكم في سلوك الأفراد من جهة أخرى. فهذا النسق يفسر التجربة الانسانية ويمنح ما هو فاقد للمعنى من حيث الأصل معنى. كما أنه، بعد أن يكون كذلك، ينقلب نسقا مهيمنًا يتحكم في تصورات الأفراد وسلوكياتهم"⁶، ويوجه حياتهم وتبنى عليه القيم الثقافية التي تخدم التوجه العام للأفراد، وهذا تكون أنساقا "تاريخية أزلية و راسخة ولها الغلبة دائما ، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق ، وكلما رأينا منتوجا ثقافيا أو نصا يحظى بقبول جماهيري عريض وسريع فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمر الذي لا بد من كشفه و التحرك نحو البحث عنه ، فالاستجابة السريعة والواسعة تنبئ عن محرك مضمر يشبك الأطراف ويؤسس للحبكة النسقية . وقد يكون ذلك في الأغاني أو الأزياء أو الحكايات و الأمثال مثلما هو في الأشعار والاشاعات و النكت كل هذه وسائل وحيل بلاغة/ جمالية تعتمد المجاز و التورية ، وينطوي تحتها نسق ثقافي ثاوٍ في المضمر ونحن نستقبله لتوافقه السري و تواطئه مع نسق قديم منغرس فينا ."⁷ يخدمه التوجه الثقافي المهيمن.

فيصبح "المجتمع هو النسق. والنسق هو أداة تصورية يرى المجتمع على أنه يتألف من مجموعة من العناصر المترابطة مع بعضها البعض، تلك تتحدد علاقتها في إطار الكل،

بمجموعة من المبادئ التنظيمية التي تستند إلى التساند الوظيفي والتفاعل بين أجزاء النسق وبعضها البعض⁸، فيتجذر في مختلف التعاملات الأشخاص على تبني معطيات ثقافية واحدة.

وتعد الرواية النسوية العربية عبر النموذج المختار للدراسة والمتمثل في رواية 'لحظات لا غير للروائية فاتحة مرشيد نموذجا على الابداع النسوي العربي الذي يسعى إلى فك العزلة عن الكتابة العربية، وكشف معاناة المرأة التي مازالت تسيرها القيم والأعراف الاجتماعية بعيدا عن الاعتراف في أحقية المرأة في إعطاء رأيها، أو وضع احتمالية لوجودها وتوجها في النظام العام للثقافة الأبوية

النسق الاجتماعي في رواية 'لحظات لا غير':

تحاول الروائية توظيف سمات جديدة للشعور الانساني الذي تعالجه على طريقة الروائية والطببة النفسية التي تدخل في علاقة حب مع مريضها، وتتخلى عن وظيفتها دفاعا عن الشعور الانساني الذي ترفضه قوانين الطب النفسي الذي يفرض عليها أن تبقى في الجانب المحايد من القضية.

وتعد الرواية ذات توجه تمردى ضد القوانين الاجتماعية التي تُفرض على الفرد، في حين قد يرفضها نفسيا لأنها لا تعبر عن روحه على حد تعبير 'وحيد' بطل الرواية، وهو الشخصية الأكثر تمردا على المؤسسات الاجتماعية التي تحد من الحرية وتضبطها بقوانينها وقواعدها. ويعد توظيف شخصية الرجل كرافض لبعض القواعد الاجتماعية، من أولى الخطوات التمردية التي حاولت الروائية بها كسر نمطية الحياة المتوارثة والمفروضة على الذكر والأنثى، تقول الرواية:

"سألته: هل أنت متزوج؟

قالها بنبرة تهكمية:

-حسب الضرورة.

فاجأني جوابه، لكنني واصلت:

-ماذا تعني بالضرورة؟

أجاب: أكون متزوجا عندما تتطلب ضرورات الحياة الاجتماعية ذلك وأكون أعزب لضرورة الشعور⁹، فالشخصية هنا تتقن دور المتمرد على المعنى العام للزواج الذي ينحصر

في الرؤية الاجتماعية له. وهذا يكشف عن المفهوم الخفي الذي تتخبط فيه حياة كثير من المتزوجين الذين لم يصلوا إلى درجة وعي مفهوم الزواج الذي يتعدى الرابطة الاجتماعية الظاهرة أمام الناس، لتصل إلى حد القناعة الشخصية بالفكرة وأبعادها. فمعظم الأشخاص المتزوجين خاضعين للضرورة الاجتماعية التي تحتم عليهم الزواج في سن معين من طبقة محددة اجتماعيا. والذي يضع المرأة في دور آلة الولادة والرجل ضمن إطار القائم والمعيّل المادي، متجاهلين أثر الحاجة إلى البناء النفسي والروحي لهذا التكامل. فجاء نسق التمرد ظاهرا مستغفرا للمفاهيم الاجتماعية المسيطرة، إذ يعد بوجه عام "تجاوز للواقع واحتجاج في وجه الأعراف والتقاليد، كما أنه رفض للكون كما هو... واحتجاج في جه الطبيعة الصامتة... وعمل على خلخلة القيم السائدة... وبحث للإنسان عن مخرج من أزمة الوجود والحرية والسيطرة. ويشكل التمرد في الرواية النسوية... ظاهرة لافتة للنظر، وهو ما يبدو بوضوح في أعمال الجيل المتأخر منهم... وهو جيل أفاد أكثر من ثمار المثاقفة التي أتاحتها العولمة"¹⁰، فمهدت لتغيير بعض القيم المجتمعية الراسخة والتي كثيرا ما يعود إليها تنظيم العلاقات بين الفئات المختلفة. ورغم أن نسق التمرد على مؤسسة الزواج كان الأكثر سيطرة على أحداث الرواية. إلا أن الروائية أعلنته على لسان وحيد/الرجل، على اعتبار أن تمرد الذكر في المجتمع الأبوي مقبول اجتماعيا، رغم أن أفعال أسماء كانت تتبنى نفس الفكرة، وتأمل منها ما يسعى وحيد لتحقيقه، إلا أن تصرفها جاء خجولا ملتفا بأحداث اجتماعية قاهرة، كثيرا ما تكون المرأة هي محورها ومركز توترها، فيأتي التناقض بينها وبين صورة الرجل المدمرة لها، ورغم ذلك تبقى الأنثى أكثر عطاء، تقول الرواية على لسان وحيد: "كانت سيدة التضحيات، تعيش من أجلي، تتحمل عنف والدي ونوباته... كنت وحيدةا ودينها... تحب والدي حتى في حالاته الأكثر تدمرا، تخلق له الأعذار، تدعوه بالهداية وتغضب لو انتقده أحد"¹¹. فهي صورة مميزة للمرأة في نموذج مختلف عما يمكن أن نقول استفحال ثقافي في ظلم المرأة اجتماعيا من قبل الرجل. فالروائية توظف المرأة/الأم لتجبر الآخر/الرجل على الاعتراف بفضلها في ظل الثقافة الأبوية التي تحمل النظرة الدونية على كل ما هو أنثوي، ف "في مجتمعنا المعاصر نلاحظ أن مرحلة الأمومة تكسب المرأة نوعا من الاهتمام والاحترام، تفتقده في مراحل أخرى من حياتها... إنه وجهه للتقديس والاحترام إلى حد منح المرأة سلطة داخل الأسرة... إنها سلطة لا

علاقة لها بخبث النساء ومكرهن وقسوتهن-كما تروج لذلك قنوات الثقافة المائعة التي تستهدف كينونة المرأة كإنسان، ولكنها سلطة تعبر عن علاقة معقدة تتدخل فيها ميزة الأمومة كأساس وشرط موضوعي"¹². يظهر الأم في أجل صورها مقابل صورة الأب/الرجل السكير الظالم لها، قالت الرواية: "تحب والدي حتى في حالاته الأكثر تدمراً، تختلق له الأعذار، تدعوله بالهداية وتغضب لو انتقده أحد"¹³، فالروائية تضخم صورة المرأة التي جاءت على شكل وظيفة الأم، وتدني من قيمة الرجل الذي أظهرته في أحط الأوصاف، بل وأكثر من ذلك جعلته المذنب المخطئ وهي التي تتجاوز له عن زلاته.

ورغم أن علاقة أسماء بوحيد ظاهرياً قائمة على التوافق فيما بينهما والاختلاف مع المجتمع في كثير من القضايا، إلا أن ذلك لم يسلم من الرؤية المتحيزة للأنثى والرافضة للسطوة الأبوية، والداعمة لكسر سيطرة الرجل وضرب مواطن قوته، تقول الرواية: "وأنا مراهق كانت أفزع شتيمة توجه لرجل هي نعتة 'بالمثلي'.. لم يخطر لي أبداً ببال إمكانية وجود نساء يمكنهن الاستغناء عن الرجال. أحسست وأنا الفخور برجولتي وبفحولتي الشرقية عدم جدواها أمام امرأة فاتنة، رقيقة. ربما كان ألي سيكون أقل لو كانت تحب رجلاً آخر، ففي هذا اعتراف ضمني برجولتي، كان سيكون لي ترف الغيرة.. إذ كيف لي أن أغار من أنثى... كانت هذه أول صفعة وجهتها إلي المرأة: لست ضرورياً لحياتها الجنسية"¹⁴. فما حدث لوحيد هي إحدى المفارقات التي لا يقبلها الرجل. فعلاقته مع صديقته التي اكتشف في النهاية أنها 'سحاقية'، لم تنل من الأخلاق التي يحتكم إليها المجتمع في نظره، ولكنها أثرت في نظرتة إلى نفسه، فأمام وجوده كرجل كان على الأنثى أن لا ترفضه وقبولها يعني إشارة إلى فحولته ورجولته. ولكن من غير المستساغ في رأيه أن تستغني الأنثى عن الرجل بوجود أنثى أخرى، حيث لا يكون الرجل طرفاً في المعادلة. فوحيد يفضل لها الخيانة مع رجل آخر على أن تهزمه أنثى بوجودها يقول: ". ربما كان ألي سيكون أقل لو كانت تحب رجلاً آخر، ففي هذا اعتراف ضمني برجولتي، كان سيكون لي ترف الغيرة.. إذ كيف لي أن أغار من أنثى... كانت هذه أول صفعة وجهتها إلي المرأة: لست ضرورياً لحياتها الجنسية"¹⁵. هكذا تُعمل الروائية أثر النسق الذي يحطم النموذج الرجالي، إذ أصبح الطبيعي من الأمور "أن يعرض... نوعاً واحداً من الرجال هم الرجال ذوو السلطة والقوة الجنسية والإيجابية، ونوعاً واحداً من النساء من ذوات صفات معينة هي الطاعة

والخضوع والعفة الجنسية (أو البرود الجنسي) والسلبية والتضحية من أجل الزوج والأطفال"¹⁶. فانقلب الصورة لتتمرد الأنثى على الوجود الذكري، وتبرهن على استغنائها، باعترافه أمام الدهشة التي قلبت موازين التعامل بين الذكر والأنثى.

ويكون المجتمع بمبادئه هو الخصم الأكثر عدائية في الكتابات النسوية، حيث يعمل ابداعها على مهاجمة أركانه، كما تبين الروائية ذلك في قولها: "بادرت بالسؤال:

-هل أنت سعيد بزواجك؟

أجاب وهو يمرر يديه على شعره هاربا إلى جواب عام:

-السعادة حرية... وهي أكبر من أن تقرر بقيد. تعمدت أن أعيد السؤال بطريقة

مباشرة أكثر:

طيب، كيف علاقتك مع زوجتك؟

-سوزان إنسانة رائعة خارجة مؤسسة الزواج... المشكلة في المؤسسة ذاتها... اليومي

يقتل الحب، والرتابة ضد الإبداع... الشاعر طائر حر والزواج قفص...

تمتعت وأنا أردد في نفسي 'يجب أن نمتنع عن الزواج حتى نظل في حالة عشق

أبدي"¹⁷. فالروائية تسقط مكنوناتها على بطل روايتها، الذي جعلته مريضا نفسيا في حين

تصدق كل كلامه، بل وتدعم إجاباته باعتقاداتها. فهو يظن أن الزواج قيد لحرية

الانسان، في حين هو لا يكتفي بوجود الزوجة فقط، فهذه الأخيرة تعبر عن الجمود الذي

تطبقه مؤسسة الزواج على حياة الأشخاص. وتتمتع الروائية بما يدعم فكرته أنه يجب

التخلي عن فكرة الزواج حفاظا على حالة العشق وتجنبا للرتابة التي تقتل الحب في نظر

وحيد. وهذا يتجسد بوضوح في ثنايا الأحداث الروائية، مؤكدا رغبة المرأة في الحرية

والتخلص من قيود الحياة الزوجية، ف"غالبا ما جاءت الحرية في الكتابة النسوية منتجة

من خلال الأزمات العاطفية في الحب، حيث كانت المرأة تشعر بأن كيانها مستلب اجتماعيا

في تجربة الزواج بالذات، لذلك مارست البطلات الحب في الكتابة بطرقهن الثائرة على

الأعراف والتقاليد كلها، وفي كثير من الأحيان ترى البطلات الجنس غير الشرعي ممارسة

عليا للحرية ضد عبودية الزواج، تمردا على السلطة الأبوية"¹⁸، وخروجا عن الوصاية التي

يُفترض على الأنثى احترامها والخضوع لها.

لتجدد الصراع النوعي بين الذكر والأنثى حول الاعتقادات والقناعات، أين تظهر الكاتبة الرجل بصورة الخائن ، الذي يغطي فشله بخياناته المتكررة، تقول: " أنا الرومانسية التي أومن بالحب الكبير، بالحب الوحيد والأوحد، بالوفاء المطلق.. قلت لنفسي هذه نظريات تخدم الرجال.. يقنعون أنفسهم بها ليبرروا كل مغامراتهم خارج بيت الزوجية.. كذلك الزميل الذي كان يقول لنا 'الزواج بمثابة الطريق السيار لا بد من باحات للاستراحة حتى تستطيع مواصلة السفر'. مبررات لإخفاء عدم نضجهم العاطفي وقدرتهم على بناء علاقة دائمة قائمة على الاحترام المتبادل. الحب يتجدد بفضل إرادتنا في ذلك. قد يتغير، قد يتطور، قد يغيب كالشمس ليشرق من جديد"¹⁹. فالمرأة أكثر وفاء وأقدر على توليد طاقات الحب حين يغيب، في حين يلجأ الرجل إلى تعدد في علاقاته، لأنه فاشل عاطفياً، فيعد هذا تعويضاً عن نقص يعيشه. ولكن لا يعترف بذلك بل يحول ذلك النقص إلى المرأة التي يجب عليها أن تبقى تحت عصمة رجل واحد في حين ينال هو حرية العلاقات المتعددة.

تعاني الروائية من خلال بعض الأحداث التي تذكرها، ولكن ما أثر في حياتها كثيراً هو إصابتها بمرض سرطان الثدي ، ولكن اللافت أن هذا المرض الخبيث هو الذي صالحها مع أنوثتها مرة أخرى، لتتساءل بعد شفائها: "أ يكون مرضي الجزء الأكثر سلامة في جسدي هو صرخة الأنوثة المكبلة بقيود مؤسسية"²⁰. فكثيراً ما تفقد المرأة جزءاً من أنوثتها بسبب الإهمال، أو أنها تعطيها أكبر جهدها ووقتها لأن المؤسسة الاجتماعية تفرض عليها ذلك في سن معين ولشخص محدد، دون إعطاء أي اعتبار لذاتها. ولهذا كثيراً ما مثل الجسد إحدى التيمات الأساسية في الكتابات الروائية النسوية، حيث كثيراً ما ربطت الروائية عودة اهتمامها بجسدها بالعودة أيضاً إلى فن الكتابة الذي تخلت عنه نتيجة خضوعها لتبعات الزواج الذي لم يزد عن كونه تشكيلاً اجتماعياً ولم يتعد حدود ذلك، أما حين تخلصت من المرض وأجرت عملية التجميل التي أعادت لها أنوثتها، ظهر "الوعي بالذات يتوازى... مع الوعي بالكتابة، مع الوعي بالأنوثة، ومع الوعي باللغة لينتج فعل الكتابة نصاً مؤنثاً تكون اللغة فيه في خط الدفاع عن الأنوثة، تلك اللغة التي استعمرها الرجل ورجلها، استطاعت تأنيثها وذلك حينما اتخذت اللغة صيغة حياة ومعنى وجود"²¹، فجسد الأنثى يعبر عن وعيها وعن نظرتها الخاصة. ف "المرأة تسوغ كتابتها بشكل مختلف

تماما عن أشكال كتابة الرجل. سواء تعلق الأمر بالكتابة المخطوطة أو أشكال الكتابات، التي لا تتوقف المرأة عن ممارستها في علاقتها بجسدها، فالمرأة باعتبارها كائنا مختلفا في تكوينه وجسده عن الرجل...تعمل على الدوام على إظهار جسدها بشكل مغاير، ولكي تغري، وتعجب، وتؤسس علاقة مع الآخر، تتخذ الصورة التي تحملها مكانة أكبر من جسدها الحقيقي والواقعي²²، فتوجد لنفسها في الابداع مكانا بما يخدم قضيتها ويشهد اختلافها، فكان أن اتخذت من الجسد الأنثوي موضوعا خاصا.

وتحاول الروائية من خلال ابداعها دائما البحث عن أنوثتها وإثبات ذاتها، تقول: "لقد ابتعدتُ عني لفرط ما تنازلت وتساهلت حتى لم أعد أعرفني.. أصبحتُ ما فعلته بي مؤسسة الزواج وتبعاتها...إنسانة آلية بلا روح ولا وجدان...إن ضحكْتُ، فبدون رنين، وإن بكيت فبدون شجن"²³. فقوانين مؤسسة الزواج عملت على تمييط الأفراد، وحجز ذواتهم في قوالب معدّة سلفا، وتعد المرأة أكبر الخاسرين لأنها تبقى التابع الخاضع دائما، في حين قد تتغير الأدوار على باقي الأشخاص، ف "الذي يدرس قوانين الزواج في مختلف أنحاء العالم يدرك على الفور أن القهر الأساسي للمرأة ينبع ويصب في هذه القوانين التي لا تجعل الرجل وصيا على المرأة فحسب، وإنما مالكا لجيدها ونفسها وكل شيء. إن عقد الزواج ليس إلا عقد تمليك، تفقد فيه المرأة ملكيتها لنفسها"²⁴ وتعطي قيادتها للمجتمع الذي يحدد بدوره واجباتها ويقدر حقوقها. "وبرغم ادراك المرأة لهذا المصير...إلا أنها تدرك أيضا أنه المصير الوحيد المقبول اجتماعيا. إن المرأة لا تختار بين الزواج أو عدم الزواج، ولكنها يجب أن تتزوج، وإلا فإن المجتمع لا يقبلها، ولا يحترمها، وفوق كل ذلك لا يعتبرها امرأة طبيعية. ومهما بلغت المرأة من الذكاء وتفوقت في عملها ونبغت، ثم لم تتزوج فلا بد أن هناك عيبا فيها"²⁵. لهذا تسعى لإرضاء المجتمع ومسايرة أعرافه، والقبول بالدور الثانوي للأنثى الذي يغيب ذاتها ويقضي على شخصيتها. ف "ما يميز حضارتنا هو الاضطهاد، وهذا الاضطهاد يمتد ويؤثر في جميع نواحي حياتنا. إن هذه الأكذوبة بأن المرأة جنس أدنى، وما يقابلها من أكذوبة أخرى بأن الرجل جنس أعلى تفسدان على الدوام علاقة المرأة بالرجل وتشوهان الانسجام بينهما"²⁶. فتبنى الحياة المشتركة على وهم الاختلاف والانعكاس، فتمارس الأنثى دور التابع، ويبقى الرجل هو الأصل في كل شيء. ولهذا رأت الروائية أن الزواج مؤسسة اجتماعية ظالمة تسعى إلى التحطيم أكثر من البناء.

تواصل الروائية وصف حياة 'أسماء' التي أرادت أن تكون مختلفة، فعادت إلى الكتابة كأسلوب لحياتها الجديدة، دون أن تغفل دور 'وحيد' في ذلك، تقول: "يحب كونه عاشقا.. عاشقا للحب كحالة امتلاء.. كغاية في حد ذاتها. أما الحبيبة فهي وسيلة للسمو، للارتقاء بمشاعره نحو المطلق، لا أكثر... يمتلئ، ويكتفي إلى درجة ينسى معها أن يقاسمها كل ما يوحي به إليه من جمال. كطفل يرفض أن يعير لعبته لأعز أصدقائه. هو المبدع وهي الإلهام. هو الحالم وهي الواقع الذي يجعل الحلم أروع"²⁷. هنا تجسد الروائية المفارقة بين الرجل والمرأة، وكيف يفصل بين نفسه وبينها ككائن من الدرجة الثانية ف" المرأة تبقى مخلوقا قاصرا رغم الثقافة والتعليم والمسؤولية، لا شيء إلا لكونها امرأة، فصصة الأنوثة تشكل قييدا للمرأة"²⁸، التي تبقى انجازاتها مقرونة بوجود الرجل وانجازاته، وكما تقول الروائية أن المرأة في نظره ماهي إلا وسيلة من أجل تحقيق ذاته، في حين يسعى إلى اقصائها وتغيب دورها أما ما يبدعه، ف"الخطاب المنتج حول المرأة في العالم العربي المعاصر خطاب في مجمله طائفي عنصري، بمعنى أنه خطاب يتحدث عن مطلق المرأة/ الأنثى ويضعها في علاقة مقارنة مع مطلق الرجل/ الذكر. وحين تحدد علاقة ما بأنها بين طرفين متقابلين أو متعارضين، ويلزم منها ضرورة خضوع أحدهما للآخر واستسلامه له ودخوله طائعا منطقته ونفوذه، فإن من شأن الطرف الذي يتصور نفسه مهيمنا أن ينتج خطابا طائفا عنصريا بكل معاني الألفاظ الثلاثة ودلالاتها"²⁹، عاكسا وضع المرأة التي تجبر على قبوله، وكل محاولة منها لتغييره يعد تمردا وخروجا يهدد الحياة الاجتماعية القائمة على محاور العادات والتقاليد والقيم التي تسيروها الأعراف الذكورية بالدرجة الأولى.

وهذا ما جعلها لا تدرك ذاتها وإنما ترى وجودها بعيون الآخرين، تقول الرواية: "لم يسبق لي أن كنت فخورة بجسدي، مع أنه لم يكن قبيحا ولا عاديا. كانت صديقاتي تحسدني عليه. لكننا نستمد الفخر من نظرة الآخر إلينا ولم تكن في نظرات زوجي السابق ما يملأني بفخر أو اعتزاز"³⁰. رغم أن الجسد الأنثوي خاصية تميزها عن عالم الرجل، إلا أن المرأة المستلبة ثقافيا والتابعة لتوجه الآخر ونظرة إليها، لم تمنح لجسدها قيمته وأهميته، ذلك أن الآخر/الرجل لم يلق بالآله، بل وألغى وجوده، ما حرّمها من نظرات الفخر والاعتزاز بجسدها، وهذا يكشف التبعية التي عاشتها المرأة، فبعض الأعمال النسوية تعمل على "ظهور بعض الشخصيات الروائية التي تقبل بواقعها حتى لو كان

مجحفا دون وعي، وهذه الذوات يسيطر عليها نسق القبول بواقعها نتيجة لما رسخته الثقافة الذكورية على امتداد تاريخها"³¹، وتسليطها على حياتها، مما يجعلها قنوات راسخة تغيب الذات الأنثوية في مقابل الحضور الكامل للرجل، وهذا ما تحاول الروائية تحطيمه وتجاوزه، فهي تفرض نسق الخضوع الذي يسير بها نحو نسق القبول، وحاولت كسر النموذج المعروف عن المرأة الخاضعة للعادات والأعراف المتوارثة، بل وتشويه صورة الرجل وإبراز ضعفه وعدم اتزانه، بل واستغنائها عن وجوده.

خاتمة:

سعت فاتحة المرشيد من خلال رواية 'لحظات لا غير' إلى نقل معاناة المرأة إلى المتلقي عبر لغة تحتكم إلى البعد النفسي، محاولة تجسيد عالم خاص يمكن للإنسان أن يستشعر فيه ذاته.

ولكن عبر اكتشاف بعض من الأنساق الاجتماعية المبنوثة في ثنايا الرواية في محاولة لكسر هيمنة الثقافة الاجتماعية التي تحد من قيمة المرأة وتفرض عليها قوانين المؤسسات الاجتماعية انطلاقا من الأسرة مروراً بمؤسسة الزواج وصولاً إلى حتمية معايشة الظروف القاهرة التي تفرض على المرأة باعتبارها كائناً من الدرجة الثانية. من خلال توظيف الروائية أفكارها التمردية النسوية على لسان الرجل بطل روايتها وتقدمها كمفاهيم مستساغة في عالم الرجال، مرجوة من طرف المرأة كي يتم استقبال النسق من طرف المتلقي.

حاولت فاتحة المرشيد خلخلة القيم الاجتماعية من خلال تفاصيل الرواية، لتمنح في نهايتها الحرية المبتغاة للمرأة، فتخلصها من سيطرة المجتمع، وتأهلها لاختيار الأحسن، واستباحة المحرم الاجتماعي، والخروج عن طوابع الآخر. وكثيراً ما تعلن تمرداً عن الحدود المرسومة واللامرئية التي تسكن ذهن الآخر، حيث اختارت لنفسها توجهاً معيناً وسعت إلى النجاح فيه.

وبعد كشف عدد من الأنساق يمكن اعتبار الثقافة الذكورية هي المنافس الوحيد للمرأة، والتي كثيراً ما أظهرت تمرداً عليه ومحاولة كسر جبروت أنساق ثقافته المهيمنة. ومن خلال هذا يمكن اعتبار الرواية النسوية مجالا خصبا للدراسات البحثية على اختلاف

مجالاتها، ويمكن تسليط الضوء على الجوانب المهمة والمهمشة من حياة المرأة التي اتخذت من الأعمال الابداعية وسيلة للبحر وتخطي المحذور في منظور القيم الاجتماعية.

الهوامش:

¹ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، ط01، ج04، بيروت، 2003، ص218

لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مج01، القاهرة، ص4413

³ النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط03، الدار البيضاء، 2005، ص79، 77، 78

⁴ - حسين المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2007، ص1

⁵ ، عصام واصل، في خصوصية الكتابة النسوية، مجلة فكر العربية، ع02، ماي2016، ص175
- نادر كاظم، تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط/دراسات- فكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص95

⁷ - النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص79-80
⁸ شحاتة صبيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مصر العربية للنشر والتوزيع، دط، مصر، 2009، ص47-48.

⁹ - فاتحة مرشيد، لحظات لا غير، المركز الثقافي العربي، ط02، الدار البيضاء، 2010، ص07.
- أحمد موسى ناصر المسعودي، الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة، مؤسسة الانتشار العربي، ط01، السعودية، 2014، ص105-106.

¹¹ - لحظات لا غير، مصدر سابق، ص12.

¹² - عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط03، الدار البيضاء، 2003، ص77-78.

¹³ - لحظات لا غير، مصدر سابق، ص12.

¹⁴ - لحظات لا غير، مصدر سابق، ص28.

¹⁵ - المصدر نفسه، ص28.

¹⁶ - نوال السعدوي، الرجل والجنس، www.kotobarabia.com، ص126.

¹⁷ - لحظات لا غير، مصدر سابق، ص36-37.

¹⁸ - حسين مناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، ط01، الأردن، 2007، ص76.

¹⁹ - لحظات لا غير، مصدر سابق، ص39.

²⁰ - لحظات لا غير، مصدر سابق، ص52.

- بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية التونسية، المغاربية للطباعة والإشهار، ط01، تونس، 2009، ص144²¹.

- مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية ، حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف، ط01، الجزائر، 2009²²، ص63.
- ²³- لحظات لا غير، مصدر سابق، ص52.
- نوال السعداوي، دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط02، الاردن. 1990، ص 267.
- ²⁵-المرجع نفسه، ص268.
- ²⁶-المرجع نفسه، ص 299.
- ²⁷- لحظات لا غير، مصدر سابق، ص64.
- ²⁸- صالح مفقودة، صورة المرأة في الرواية الجزائرية، ط02، الجزائر، 2007، ص16.
- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة،المركز الثقافي العربي، ط03، الدار البيضاء، 2004²⁹، ص29.
- ³⁰-لحظات لا غير، مصدر سابق، ص74.
- ³¹-الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة، مرجع سابق، ص 91.

*** **